قراءة في رواية «النبطي» ليوسف زيدان

الاربعاء, 11 مايو 2011

عبدالعزيز المقالح

-1-

هل كان على الرواية العربية التاريخية الحديثة - بعد محاولات نجيب محفوظ الأولى وآخرين - أن تنتظر مجيء روائي كيوسف زيدان لكي ينفخ فيها الروح ويعيد إليها الحياة متجاوزاً النهج السردي المألوف الذي سارت عليه ومعتمداً على طاقة خيالية هائلة واقتدار في استحضار الأمكنة والأزمنة، مستعيناً بلغة هي الأعذب والأجمل في كل ما كتبه الروائيون العرب من روايات واقعية وتاريخية؟

سؤال طويل قد يحمل في تضاعيفه قدراً من الإجابة المطلوبة ولو في الحد الأدنى ليؤكد أن هذا الروائي الذي طلع علينا فجأة متأبطاً حتى الآن عملين روائيين مهمين وبديعين، هو إضافة حقيقية إلى عالم الرواية العربية في فترة استثنائية من نضجها واكتمالها. ولم يكشف هذان العملان - بإجماع كثير من النقاد - عن روائي يجيد التقنية المتعلقة بهذا الفن فحسب، بل كشفا كذلك عن أكاديمي مثقف استوعب على مهل تاريخ أمته القديم والوسيط، وحاول بطريقة فنية راقية وغير مباشرة ربط ذلك التاريخ بواقع هذه الأمة وهمومها الحديثة، خصوصاً عبر رواية «عزازيل» التي تعد واحدة من أهم الأعمال الروائية التي شهدها العقد الأول من الألفية الثالثة .

وإذا كان الفن القولي، شعراً، وقصة، ورواية، ومسرحاً لا يؤرخ ولا يشكل وثائق يمكن العودة إليها للتدليل أو التعليل على حادث أو واقعة تاريخية ما، إلا أن الأثر الذي يتركه في النفوس – عندما يقترب من هذا المجال - يبدو في كثير من الأحيان أهم، بما لا يقاس، من كل ما كتبه المؤرخون وتناقلوه لا سيما عندما يكون الروائي مبدعاً وقادراً على استبطان تجربته وتمثل المنبع الجوهري لمصادره ولما يريد لعمله أن يقول للقارئ. ومن نافل القول أن ليس كل من كتب رواية تقارب التاريخ أو تستوحي من أحداثه يملك هذه الخاصية أو الإمكانية التي تجعله يقيم باقتدار مثل هذه المقاربة الفنية غير المباشرة بين ما هو تاريخي وما هو خيالي، وما هو تعبيري وما هو أيقوني. الأقلية المبدعة فقط هي التي تملك هذه الإمكانية وتختار لعملها الشكل التعبيري المناسب.

ولا أشك في أن يوسف زيدان واحد من هؤلاء المبدعين القلائل الذين نجحوا في إمتاع أبصارنا وبصائرنا بهذا المستوى الناضج والعميق من الإبداع الروائي الذي يجعلنا - من خلال الفضاء الروائي - نسترد فصولاً من تاريخنا الضائع، ويحملنا عبر الصور المرسومة ببراعة والسرد الذكي إلى عوالم مثيرة ومدهشة من الممكن جداً أن تكون قد وجدت في تاريخنا على هذا النحو من الوجود، وأن شخوصها عاشت هذا النوع من الحياة التي قد تروق للبعض منا ولا تروق للبعض الآخر. فقد استطاع في «عزازيل»، كما في «النبطي»، أن يقدم تجربتين إبداعيتين على درجة عالية من الصفاء الفني والإشباع والإمتاع. ومن المؤكد أن أي عمل إبداعي يتوقف عنده الناس مبهورين ليس مجرد صدفة فنية وإنما هو انعكاس لجهد خلّاق ومعاناة واستثمار لكل ما أفاده المبدع من قراءاته تساعده في ذلك طاقة عالية من سعة الخيال والاقتدار على استخدام رفيع ودقيق للغة وتوافر رصد التفاصيل وتصويرها.

لن أتحدث في هذه القراءة القصيرة عن رواية «عزازيل» التي نالت من إعجاب القراء ونالت من الشهرة وعناية النقاد بعض ما تستحقه، وإنما سيقتصر حديثي على رواية «النبطي»، هذا العمل البديع الذي لا يقل عن «عزازيل» أهمية وجهداً فنياً ولغوياً. والسؤال المكرور الذي يتبادر إلى الأذهان هو: ما الذي أراد يوسف زيدان أن يقدمه في روايته هذه؟ ويصح القول، بداية، إنه إذا لم يكن القارئ قد اهتم بقراءة هذا العمل وتوقف عنده طويلاً أو قليلاً فإنه من الصعب اختزال الحديث عنه في كلمات أو حتى في صفحات، وأي عمل فني في المستوى نفسه لا يمكن الحديث عن فكرته في منأى عن بنيته الفنية واللغوية وطريقة إدارته نظامَ السرد وسياقاته المختلفة. هل أقول إن المتن النصي أو جوهر هذه الرواية يتمحور حول تتبع الصلات الوثيقة بين العرب القدماء وجيرانهم المصريين قبل البعثة المحمدية وفي بدايات ظهورها، وكيف أن هذه العلاقة لم تقتصر على التبادل التجاري والاقتصادي الذي كان يتم كذلك بين العرب والهند والصين، وإنما كان يقوم على شيء آخر، وأعني به الجانب الروحي والثقافي والمصاهرة والزواج أيضاً، ما يؤكد بما لا يقبل الشك حالة من التجاذبات الروحية والشعور بخصوصية التقارب الروحي ما بين مصر والجزيرة العربية وما ينتج عنه من بداية البحث عن التكاملية، الجغرافية والاجتماعية، لا سيما وقد اختار الروائي أن تتزامن أحداث روايته بإرهاصات ظهور الإسلام وتراجع الصدام بين القوتين الأعظم في ذلك الزمن، الفرس والروم، وتنازعهما على مصر إلى ما يشبه التصالح بعد قرون من الصراع الدامي، وما تنطوي عليه هذه الإشارة غير المباشرة إلى قرب انتهاء نفوذ هاتين القوتين بظهور القوة الجديدة الممثلة في العرب والإسلام .

-2-

وحده الأفق الزمني للرواية كفيل بأن يثير في نفس القارئ الدهشة، ويجعله أسير إيقاع الزمن البعيد، وحال استحضاره الماضي في الحاضر واستشعاره في الوقت ذاته كم أن الأوضاع الاجتماعية من حيث الرغبة في التواصل مع الآخر القريب بخاصة، ومن حيث المعنى الإنساني المتمثل بحالات الحزن والفرح لم تتغير كثيراً، وربما لن تتغير، فالإنسان هو الإنسان تتغير مظاهر الحياة من حوله وهو من الداخل لا تزيده المتغيرات والتقلبات إلّا تمسكاً بإنسانيته وما يكتنف إيقاعه الداخلي

من نبض ينتظم حياته بحياة الآخرين مهما كانت هوياتهم ومعتقداتهم، وأياً كانت له عليهم من ملاحظات أو كان لهم عليه من ملاحظات. إن مرور الزمن وتعاقب الفصول وتخالف الليل والنهار لا يلغي» الأنسنة» ولا يجعل للحاضر فضلاً على الماضي ولا فضلاً للماضي على الحاضر والتقدير المبالغ فيه للماضي لدى البعض لا يكون إلّا تعبيراً عن نقد الحاضر وعجزاً عن استشراف المستقبل.

يضاف إلى ذلك أن رواية «النبطي» على رغم اقترابها من مناخ التاريخ إلّا أنها أبعد ما تكون عن الأعمال الروائية المماثلة التي تسعى لتكون أقرب إلى الوثيقة التاريخية. الروائي يوسف زيدان يجعلك تعايش التاريخ من دون أن تتماهى فيه أو بعبارة أخرى يضعك في مناخ من التاريخ لا في التاريخ نفسه، وهو يحرص على أن يقدم عملاً روائياً بكل ما تعني كلمة رواية من معنى. صحيح أنه قبل أن يكتب الرواية كان ينبش في التاريخ ليستخلص منه رؤية عامة، إلّا أن حس الروائي تحكم فيه أكثر من حس المؤرخ، وأن همه الأول ظل يتركز في أن يقدم عملاً روائياً فنياً في مناخ من التاريخ وهو ما يظهر جلياً في هذا العمل البديع الذي ينزعك من قلب زمنك الراهن ليضعك في قلب زمن آخر لا لتقرأ تاريخ ذلك الزمن وإنما لكي ترى بعين الروائي كيف كان الناس يعيشون ويفكرون ويحبون ويكرهون في ذلك الزمن الذي يبعد عنا بما يزيد عن خمسة عشر قرناً .

وهنا لا بد لي من القول إن رواية «النبطي» تأخذ قارئها بأسلوبها وبأحداثها وبالوصف الدقيق لمفردات المكان وما يحيط به من طبيعة متنوعة، سهول خضراء، وصحراء قاحلة، وبحر وجبال فضلاً عن تنوع العادات والتقاليد وحرية الانتماء الديني، حيث تجتمع بين أفراد الأسرة الواحدة الوثنية بالمسيحية واليهودية، وبالمنتظرين للدين الجديد الذي بدأت إشراقاته تضيء من قلب الجزيرة العربية. ولا ينسى الكاتب أن يكسر سياقه النصي المتماسك بشذرات أو لقطات من الشعر المنثور المستوحاة من فضاء الرواية، ومما يمكن وصفه بأصداء شعرية تعجز اللغة الروائية أحياناً بكل مفرداتها الظاهرة والخافية أن تعبر عنها كهذه اللقطة التي تأتي على لسان بطلة الرواية وراويتها مارية المصرية زوجة سلومة النبطي بعد أن انتقلت من كفر النملة بمصر إلى بادية الشام حيث يقيم الأنباط :

ورأيتني سحابة في السماء، تمر

فتحرك حولنا الحب والهواء، تمر

فتسقي المشتاقين وتؤنس الغرباء، تمر

فتسقط على قلبي الحار، نقطة ماء،

ورأيت وجهاً أعرفه، يكلمني بلغة لا أعرفها

ويقول الكثير. (ص 219(

في اختتام هذه القراءة القصيرة أود الإشارة إلى ذلك القول الصائب الذي يذهب إلى تأكيد أن الحياة رواية وأن في حياة كل إنسان على وجه الأرض رواية أو مجموعة من الروايات، لكن البراعة تكمن في الطريقة التي يتم بها تقديم هذه الرواية، وكيفية تحويلها إلى قيمة إبداعية وأسطورية خالدة من خلال الأسلوب والشكل والتنقيب في الذاكرة عن أهم المواقف وأكثرها ألقاً وتأثيراً، وذلك هو بعض ما توافر للكاتب والروائي الكبير يوسف زيدان.

****

يوسف زيدان راوياً غزوة مصر

الأحد, 03 أبريل 2011

فاطمة ناعوت

رواية يوسف زيدان الجديدة، الصادرة عن دار الشروق المصرية في طبعات عدة متتالية،» النبطيُّ» روايةٌ رمزية تسرد حكايةَ دخول العربِ مصرَ عامَ 639 م. البنتُ المليحة «مارية»، العذبةُ الوادعةُ ابنة الثمانية عشر عاماً، التي تجد سلواها في تمشيط شعرها المموّج الجميل، ثم جدله في ضفائر طويلة، وتتحايلُ على وحدتها بإطالة النظر في عيني عنزتها اللتين تحتشدان بالكثير من القول والكلام، هي مصر. الصبيةُ الغضّة مارية المصرية، هي مصرُ القبطية، قبل أن يفتحها العربُ ويستخلصوها لأنفسهم من يد الرومان، فيتحول لسانُها من القبطية إلى العربية. هكذا قرأتُ رمزيةَ الرواية. ثم هي صبيةٌ شابة، على رغم أن عمرها خمسون قرناً، ربما تماشياً مع قصيدة أحمد فؤاد نجم: «مصر يا أمّة يا بهيّة/ يامّ طرحة وجلابية/ الزمن شاب وانتي شابة/ هو رايح إنتي جاية»... حيث «شابَ» فعلٌ ماض للفعل «يشيب»، بينما مصرُ «شابّةٌ» لا تشيخ أبداً.

نُبحر مع مارية في رحلة حياتها التي قسّمتها الروايةُ أقساماً ثلاثة .الحياة الأولى: تبدأ برصد تفاصيل حياة الفتاة مارية المصرية ويومياتها أثناء الحقبة القبطيةِ في مصر، ستة قرون، ثم انتظارها، وانتظار أسرتها معها، ذلك الخاطب القادم من بلاد العرب ليتزوجها. تماماً مثلما ظلت مصرُ تنتظرُ فاتحيها وغُزاتها، فاتحاً بعد فاتح، وغازياً في إثر غازٍ، على مدى تاريخها الطويل. فطالما كان الجمالُ نقمةً! ذلك أن جغرافيتها الفريدة، بموقعها وخصبها ونبلها الفريد، وكذلك حضارتها العريقة الضاربة في قلب الزمن، جعلتها دائماً محطَّ أعين الغزاة وشغف مطامعهم الذي لا يهدأ. الحياة الثانية :الرحلةُ الطويلة الشاقّة التي قطعتها مارية مع زوجها العربي من مصرَ /وطنها، إلى شمال الجزيرة العربية/ وطنه. والرمزُ هنا يقول إن البنتَ ذهبت إلى بلاد الفاتح محمّلةً بالفضول والتشوّف، والكثير من التوجّس، من أجل معرفة طبيعة هذا الفاتح الجديد وثقافته وأسلوب حياته .

الحياة الثالثة: حياة مارية سنواتٍ عشراً بين ركام حضارة الأنباط العرب الغابرة. هنا تبدأ مارية/مصرُ، في تشرّب ثقافة زوجها/ الفاتح، الغريبة عنها، وتدرس تكوينه الفكري والاجتماعي. وبعد انقضاء تلك المدّة، تعود مارية/ مصر الرمز، مع زوجها الفاتح/الغازي، إلى مصر/ الوطن، فيدخلوها فاتحين أو غزاةً (سمِّها ما شئت)، مع حملة عمرو بن العاص الذي هام شغفاً بمصر، ليغيّروا هويتَها وثقافتها وعقيدتها ولسانها وكاملَ مستقبلها. في الحياة الأولى تعرف مارية أن كل شيء في الدنيا له أسماء ثلاثة: واحد باللغة القبطية، لغتها الأم، والثاني باللغة الرومانية، لغة المستعمر الراهن آنذاك، والثالث بلغة العرب، لغة التجار الذين يرتادون مصر بتجارتهم على نحو منتظم، والذين سيغدون عمّا قريب الغزاةَ الجدد. ومثلما تتجاور الألسنُ في المعاجم، من دون صراع، لتعريف الشيء الواحد، يمكن أن تتجاور الدياناتُ والمعتقدات في الأسرة الواحدة من دون صراع أيضاً، بل في تناغم رفيع مدهش .أظن هذا هو الدرس الأهم في هذه الرواية الجميلة. فنجد أشقاء ثلاثة، أحدهم مسيحي؛ سلامة زوج مارية، والثاني يهودي، والثالث هو النبطي الصامت الذي ينتظر الاشارة، يرجو منها استعادة مجد الأنباط وإحياء هويتهم الغابرة، بعدما جرفت السيولُ مضاربَ أجدادهم فيتسيّدهم العرب، بينما أمهم، أم البنين، وثنيةٌ تعبد إلات. على أن أربعتهم يعيشون معاً في سلام راق ومحبة لا غبار عليها؛ يحترم كلٌّ منهم عقيدة الآخر، وخصوصيتها، بل ويتمازحون أحياناً في ما بينهم حول الأمر في بساطة ورقي. ولعل هذا هو الدرس الذي يجب أن يتعلمه المصريون الآن، لكي ننجو من المنعطف الخطير الذي تمر به مصر الآن من طائفية ترمي بكارثة هنا ومذبحة هناك، بين الحين والآخر.

بمجرد أن تشاهد مارية خطيبَها سلامة، تعرف أنه ليس فارس أحلامها، وأنها لن تقدر على حبّه أبداً. تُفضِّل عليه شقيقه «النبطي» الصموت المتأمل، الذي يعتزل الناس في خلوته انتظاراً للنبوة التي لا تجيء. حتى أنها في نهاية الرواية، لحظة إقلاع القافلة التي تحملها عائدةً إلى الوطن مصر مع الفاتحين، تنظرُ وراءها وتقول: «هل أغافلهم، وهم أصلاً غافلون، فأعود إليه، لأبقى معه، ومعاً نموت، ثم نولدُ من جديد هُدهدين». وربما تعمّد المؤلفُ ألا يضع علامة استفهام (؟) في نهاية هذا السؤال، لتقف الجملةُ على الخط الحرج بين الجملة الخبرية والإنشائية، فتكرّس غموضها.

في الحياة الثانية نتعرف على الرحلة الطويلة الشاقة التي قطعتها مارية مع زوجها وقافلته من وطنها مصر إلى الجزيرة العربية على ظهر حمار سبّب إنهاكها، وتوقفها عند الأديرة التي تعرفت في أحدها على مارية القبطية التي سيتزوجها الرسول في ما بعد. خلال تلك الرحلة، تبدأ في تعلّم عادات العرب، التي تختلف عن عادات المصريين، فتدرك أنها، كامرأة، محرومةٌ من أشياء طيبة وبريئة يتمتع بها الرجل، مثل النزول في البحر، هبةُ الله للأرض، فتقول لنفسها، وهي ترقبُ زوجها بحسد وقد غطّت جسده الأمواج، بينما جسدها متكوّم تحت طبقات الأردية السوداء الكثيفة: «حظُّ الرجال من الحياة، أوفرُ من حظ النساء.«

في الحياة الثالثة تعيش مارية حياةً تختلف عن حياتها المصرية القبطية التي كوّنت طفولتها وصباها. ومثلما تعرّفنا على طبيعة حياتها المصرية في الحقبة القبطية، نتعرّف معها نحن القراء، على بقايا حضارة الأنباط في المنطقة الواقعة بين الأردن وجزيرة العرب. كيف يعيش أولئك العرب في مضاربهم بثنايا الجبال التي اتخذوها مساكن لهم، أساطيرهم وطرائق علاجهم وطبيعة مأكلهم ومشربهم وطقوسهم اليومية. ذاك هو الخيط المعرفي الذي يحرص زيدان على تضفير أعمالها الرواية به. نعرف كذلك كيف سيحرم سلامة العقيمُ زوجتَه من حلم حياتها، الأمومة، وصبرها على ذلك، من دون حبّ كان سيخفف، لو حدث، من حدّة الحرمان من الطفل. هل في ذلك رمزٌ يقول إن دخول العرب مصر سيقطع عليها خيطَ الهوية

الممتد معها منذ الهوية الفرعونية وصولاً إلى الهوية القبطية، فتتحول إلى «عربية»، بعدما انقطع النسلُ المصري؟ ربما. يأمرها زوجُها، بعد دخوله الإسلام، أن تُسلم. ولما تسأله كيف، يأمرها بأن تنطق الشهادتين، ثم يبتسم ويخبرها أنها الآن مسلمة.

الرواية، فنيّاً، تنتهجُ تيار الوعي، من حيث الوثب الرشيق بين الواقع والخيال، والجمع بين الشخوص المؤلّفة؛ مثل مارية وعائلتها وزوجها وعائلتها، وبين الشخوص المعروفة تاريخيّاً مثل عمرو بن العاص، ومارية القبطية، إحدى زوجات الرسول، وفروة بن عمرو الخزامي، وغيرهم. تحتفي بالمكان، فيغدو هو البطل في كثير من مقاطع الرواية والمحرّك لأحداثها وشخوصها. نتعرف في الحياة الثانية، الرحلة، على جبل إبل، الذي نشأ عليه إلهُ النبط، وجبل السكاكين، الذي كلّم موسى من فوقه ربُّه سائله أن يراه جهرة، فلما تجلّى له خرَّ الجبلُ خاشعاً متصدعاً على هيئة شظايا صغيرة كأنصال السكاكين، وكذلك نتعرف على الكثير من الكنائس والأديرة المصرية والملكانية والرومانية والنسطورية. كذلك تعتمد الروايةُ اختزالَ الزمن وإطالته تارةً، والوثب بين الحقب والدهور واللحظات والساعات تارة أخرى. احترام خط الزمن وحكي الأحداث في تراتبها الوقتي، ثم إطاحة هذا الاحترام وتهشيم خط الزمن واللعب به. كذلك تفعيل حيلة «المونولوغ الداخلي»، الذي أتقنت لعبَه فرجينيا وولف، وغيرها من رواد تيار الوعي. رسم دائرة متينة من الخيال ثم تكسيرها للخروج منها إلى فضاء الواقع.

روايةٌ بديعة تضيف إلى رصيد يوسف زيدان الإبداعيّ المميز، الثري من حيث البناء اللغوي، ومن حيث تضفير التاريخيّ بالإبداعيّ في جديلة إشكالية تمنحه الكثيرَ من المريدين، والكثير جداً من المناوئين، وهذا شأن الإبداع الكبير.

****

أكد أن "الكنيسة غضبت من "عزازيل" لتحديها سلطتها على التاريخ"

يوسف زيدان لـ" السياسة ": رواية "النبطي" ردي على كتاب "اللاهوت وأصول العنف الديني"

البهتان في الرد على زيدان" يصف الرواية بأبشع ما عرفته المسيحية... وزيدان يرد بيشوي يعبر عن نفسه

كتب - جمال بخيت:

هل سيتحول كتاب »عزازيل« لفيلم سينمائي بعد الضجة الكبيرة التي احدثها الكتاب، الجانب المسيحي من اساقفة وقساوسة يرون ان ظهور هذا العمل سيساعد على مزيد من التشويه الموجه للكنيسة على مدار التاريخ، وسيظهرها بانها صاحبة الدور الاكبر في انها لعب خلال فترة ما دوراً ضد مصالح شعب الكنيسة، بل ولم تفعل شيئا تجاه ما تعرض له المسيحيون من ظلم واجحاف في عصر الرومان والبيزنطيين وهو ما تدعو وتشير اليه وقائع رواية »عزازيل.«

مجموعة من المؤسسات الانتاجية تسعى وراء صاحب الرواية ومؤلفها الدكتور يوسف زيدان للتعاقد حول الرواية وتحويلها لفيلم سينمائي ربما سيزيد (الطين بلة) كما يقول المثل الشعبي، فيما لاتزال الاوساط الكنيسية في مصر تشير الى ان زيدان قام بالسطو على الرواية من نصوص قديمة، وتنفي معظم التهم بل كلها والتي ذكرت في وقائع رواية عزازيل ضد بعض الشخصيات المسيحية والكنيسية بل وتقول الكنيسة ان هذه الاتهامات بكاملها لا اساس لها من الصدق التاريخي.

وكانت الكنيسة المصرية قد اتهمت زيدان صاحب رواية عزازيل بالبعد عن الحقيقة ومحاولة هدم العقيدة المسيحية الحقيقية، كما أوردت هجوماً شديداً على الرواية حين صدورها واتهمت كاتبها ومحتوياتها بالتدخل في الشؤون المسيحية الداخلية. زيدان اشار في وقت سابق الى ان هذا الهجوم سينهى في حينه، ولم يمنح لهذا الهجوم العنيف اهمية عليه وعلى كتابه، وقال ان هذه المعلومات التاريخية محققة من مجموعة من اللفائف المخطوطة التي لا تقبل الشك وهذا ما اثار هذه الجهات المسيحية التي تعجبت من وجود هذه الحقائق، فيما رفض ايضا وصايتهم على التاريخ المصري في الفترة بين الوثنية ودخول الاسلام، فالتاريخ مفتوح امام الجميع، زيدان الذي يرى ان الكنيسة القبطية تصورت ان الخمسة قرون التي سبقت دخول الاسلام عام 640 م هي ملك خاص للكنيسة القبطية ويرى ان هذا التصور غير مقبول وغير منطقي.

«عزازيل« الرواية التي طبعت خمس طبعات وفازت اخيراً بجائزة (بوكر) في الرواية العربية بعد صدورها بعام واحد يذكر فيها الباحث د. زيدان ان الحشد المسيحي هو الذي قتل الباحثة السكندرية الوثنية (هيباتيا) في الاسكندرية عام 410م وبرهن على وجود العنف المسيحي خلال تلك الحقبة من التاريخ المصري.

ويصف الانبا بيشوي صاحب كتاب "البهتان في الرد على زيدان" رواية »عزازيل« بأنها »ابشع رواية عرفتها المسيحية«، واعتمد فيه على روايات لمؤرخو الكنيسة المصرية، ويتهم الانبا بيشوي زيدان بانه اورد المعلومات التي ذكرها دان براون في رواية »شفرة دافنشي« التي تحولت الى فيلم سينمائي لاقى الكثير من الهجوم في الغرب حتى وصل الامر لعدم تمويل الفيلم، ويتهم كذلك زيدان بانه ذكر في روايته ان الامبراطور حرق الكتب الاريوسيه والغنوسية التي تحتوي على الكثير من المغالطات، ولكنه نسى ان ما تم بالفعل هو احراق هذه الكتب والابقاء على الاناجيل الاربعة المعروفة باثبات التاريخ، ان الامبراطور بالفعل امر بذلك سواء لتنفيذ امر الكنيسة او غير ذلك فالمهم والثابت تاريخياً ان ذلك حدث وهو امر لا يقلل ما ذكره زيدان من حقائق في روايته التاريخية وانه قد تم بالفعل وهو اشار اليه زيدان، وفي موضع اخر يهاجم الانبا بيشوي زيدان لانه ذكر ان الملكة هيلانة ام الامبراطور قسطنطين قد بدأت حياتها ساقية ويتعجب البعض من هذه الفرضية فسواء كانت بالفعل ساقية فما العيب في ذلك قبل ان تصبح ملكة وان هذا الامر لا يعيب المسيحية في شيء فمن المعروف ان الملكة هيلانة هي التي انشأت كنيسة القيامة وعدد من الكنائس المسيحية الاخرى، ويرى الانبا بيشوي ان زيدان في بحثه التاريخي اعتمد على كتابات الكثير من المؤرخين امثال داسيوس وتشارلز كنس وادوارد جيبوت وكارل ساجان واتهم الانبا بيشوي هؤلاء بأن كتاباتهم كانت للتعبير اللئيم وتزييف الحقائق وللدعاية باعتبار ان كل هؤلاء وصفوا الفيلسوفة هيباتيا بأنها شهيدة وعذراء وضحية قتلت بتحريض من القديس كيرلس اسقف الاسكندرية لتصبح هذه القصة احد الوسائل التي اثارت الجدل بين البروتستانت والكاثوليك وهي المذهب الذي يعتنقه الاسقف، ويرجع الانبا بيشوي مقتل الفيلسوفة الى مجموعة من الرعاع وهناك كتابات تشير الى ان هذه الفيلسوفة قد كرست حياتها او معظمها لعالم السحر وتسببت في اذى الكثيرين بهذا السحر، ولكن لا تنفي هذه الروايات او الكتابات التاريخية ان هذه المرأة كانت فيلسوفة معروفة ولها اسهامات كبيرة في علم الرياضيات خصوصا في علم الجبر، كما هاجم الانبا بيشوي الاب يوحنا ابراهيم مطران الكنيسة السريانية بمدينة حلب السورية لثنائه على رواية عزازيل، وقال انه من غير اللائق ان يقرأ الرهبان هذه الجوانب اللاأخلاقية التي وردت في الرواية ويتهم الانبا بيشوي الرواية بأنها دعوة للالحاد وهدم الدين بل والاديان واتخذت المسيحية الستار الذي تختبئ وراءه.

زيدان رفض التعليق على ما جاء في اتهامات الانبا بيشوي، واشار الى ان الكتاب يحمل وجة نظر صاحبه ولا يعبر عن رأي الكنيسة القبطية، وتشير المصادر ان البابا شنودة لم يقرأ الرواية ولا يعرف عنها شيئاً، اذن القضية الآن هي رد شخصي من الانبا بيشوي على رواية عزازيل، وخلال الايام المقبلة سيقوم زيدان بنشر كتابه »اللاهوت واصول العنف الديني« والذي

يحتوي على بحث مفصل حول الموضوع، وايضا يعكف د. زيدان الذي شغل منصب مدير المخطوطات بمكتبة الاسكندرية وله من المؤلفات ما يزيد عن خمسين مؤلفاً سواء ان كانت كتب محققة تراثياً او كتابات متخصصة في عالم التراث.

زيدان ليبرالي ديني يؤمن بكل الاديان وتلخص روايته عزازيل حالة العنف الديني والتطرف في القرن الخامس كما هو حاصل الآن، والغريب في الامر ان الانبا بيشوي الذي كان صديقاً للدكتور زيدان هو الذي منح اللفائف التي من خلالها حقق د. زيدان في موضوعيتها وصاغ روايته التي لا تزال تلاقي نجاحاً كبيراً رغم الكثير من الانتقادات التي تواجهها خصوصا من جانب الكنيسة المصرية.

****

في رواية "النبطي" .. أبطال يوسف زيدان يشهدون فتح مصر

محيط – سميرة سليمان

"نهايات هذه الرواية، كُتبت قبل بداياتها بقرون.. " هكذا يخبرنا الدكتور يوسف زيدان في روايته الصادرة منذ أيام تحت عنوان "النبطي" والتي تدور أحداثها في العشرين سنة التي سبقت فتح مصر، وقد كانت مصر خاضعة للبيزنطيين الرومان حتى دخلها الفرس عشر سنوات منذ 618 حتى 628 م ، ليستردها البيزنطيون مجددا عشر سنوات قبل أن يفتحها العرب المسلمون 639م

تتحدث الرواية عن الأنباط وهم جماعات عربية كبيرة اشتهرت منذ أمد بعيد ، قبل ظهور المسيحية والإسلام، وانتشرت في المنطقة الشاسعة الممتدة من جنوب العراق، مرورا بشمال السعودية، وجنوب الأردن، وفلسطين، وسيناء، وكان لهم دور في تمهيد دخول المسلمين لمصر، وهم أصحاب الآثار الهائلة الباقية منحوتة بالجبال بمنطقة "البتراء" بالأردن، وما حولها من مناطق "مدائن صالح"، و"وادى رم".

تُقسم الرواية الصادرة عن دار "الشروق" إلى ثلاث حيوات صاغها المؤلف بأسلوبه الأدبي الذي يمزج الفصاحة والشاعرية أحيانا؛ الأولى بعنوان "شَهْرُ الأَفْرَاح"، الثانية "صَدْمَةُ الصَّحْرَاء"، والثالثة "أُمُّ البنين".

زواج وفرح

بطلة الرواية فتاة مصرية تدعى "مارية" تعيش شرق الدلتا، تبدأ أحداث الحيوة الأولى "شهر الأفراح" بخطبتها لأحد العرب الأنباط، وتقول عن ذلك : " بلا تردد، موافقة عليه" فقد تجاوزت سن الثامنة عشرة من عمرها وكانت يائسة من دخول الفرح إليها والزواج بعد طول وحدة وأيام بطيئة حيرى جعلت روحها شاحبة .

وحين جاء جماعة العرب لخطبتها نظرت مارية فرأت شابا وسيما يغض بصره عنها، ومحلى بعمامة يفوح العطر منها، تمنت أن يكون خاطبها هذا الذي يسمونه النبطي ، ولكنها علمت أن أخيه "سلامة" ذي الحول الطفيف في عينه هو خاطبها، واضطرت مرغمة على القبول به بعد أن نهرتها أمها ، وقد وعد العرب بأن يأتوا بعد شهر ليأخذوا العروس.

تكشف الحيوة الأولى عن بعض الشخصيات مثل "أبونا باخوم" وهو قس كنيسة الكفر التي تعيش به مارية، و"بطرس الجابي" وهو ثري الكفر يتاجر مع الأنباط، و"بنيامين" أخو مارية الأصغر الذي ردد على مسامع أخته ما يقوله أهل الكفر من أن الفرس سيخرجون بجيوشهم وأفيالهم من البلاد، وسيمرون على الكفور والقرى ويخربونها، ثم يدخل جند هرقل فيحصد جنودهم الأخضر ويدوسون اليابس وهو الأمرالذي أشاع الفوضى في أنحاء الكفر.

وبسبب تلك الفوضى جاء العرب الخاطبين قبل موعدهم لأخذ مارية العروس، وطمأنوا أهل الكفر بإخبارهم أن هرقل وجنوده اتفقوا مع ملك الفرس المسمى كسرى على الخروج من البلاد بسلام وبلا تخريب كي يضمن الروم لأنفسهم جباية الضرائب من بعدهم، والفرس سيحصلون مقابل خروجهم المسالم ودخول جند هرقل آمنين، على قدر من المال، ولن يمروا على البلدات أو الكفور وسيسلكوا طريقا آخر في الخروج، وهكذا ودعت مارية أمها وأخيها واستعدت لحياة جديدة في الصحراء.

[البتراء - اثار العرب الأنباط]

البتراء - اثار العرب الأنباط

صَدْمَةُ الصَّحْرَاء

عنوان الحيوة الثانية في الرواية حيث تقطع "مارية" المسافة من الكفر بالدلتا إلى مضارب الأنباط شمال الجزيرة العربية وتحديدا في المنطقة الواقعة جنوب البتراء بالأردن، وتأتنس بابن أخي زوجها الذي يدعى "عميرو" وتشكو له من وحشة الغربة عن بلادها.

في تلك الحيوة ظهرت لأول مرة شخصية الصحابي "حاطب بن أبي بلتعة" الذي انتظرته قافلة زوج مارية "سلامة" لترحل القافلتين سويا، ووصل حاطب ومعه فتاتين من مصر كهدية من الدوق الذي كان يحكم الناحية الشرقية هناك للنبي صلى الله عليه وسلم، وهما مارية القبطية وأختها "شيرين" ولكنها لغثاء فتنطقها سيرين.

اقتربت بطلة الرواية أكثر من عائلة زوجها فتعرفت على أخيه الهوديّ الذي كان متحيرا بين المذاهب والديانات، حتى اختار لنفسه اليهودية، لكن اليهود لم يقبلوه بينهم تماما لأن أمه وتدعى "أم البنين" ليست يهودية، فبقى من يومها في منزلة بين المنزلتين، لا هو يهودي ولا أممي، والذي مثله تسميه العرب الهوديّ.

أخبر عميرو مارية أنها ستجد لديهم كل الديانات فأبيه هودي، وعمه سلامة – زوجها – مسيحي على هون كما يقول لا يذهب إلى الكنيسة إلا لسبب، وعمه النبطي يدعي أن وحيا يأتيه لكنه لا يذيعه بين الناس، وجدته "أم البنين" لا تؤمن إلا بالربة اللات.

وحين سمع الصحابي حاطب من سلامة ما يزعمه أخيه النبطي من أمر الوحي قال: لا تقل الوحي، فالوحي الحق واحد، ناد أخوك فأسمعه القرآن ليعرف أن الجن تلعب برأسه.

النبطي

بدأت مارية تسمع للنبطي باهتمام وهو يكلم ابن أخيه عميرو مؤكدا له أن الأنباط هم أول من عرفوا البلاغة وأول من قالوا الشعر في العرب، وأول من كتبوا المفردات قبل عرب الشام والعراق، وأول من اتخذوا من الجبال بيوتاً، وصدوا الروم عن جزيرة العرب، فيرجعون عنها وعن اليمن، ويعيش الناس أحرارا في صحراواتهم، فالصحراء صنو الحرية، ولا صبر لها على استعباد.

تتضح معالم شخصية النبطي أكثر حين حدّث "سلامة" مارية عنه قائلا: أبي وأمي أفسداه بكثرة العناية والتدليل منذ مولده، فلما بلغ السعي صار أبي يعلمه من دوننا، ولا يناديه إلا بلقب النبطي وهو بعد صبي، وكان يعلمه ركوب الخيل والرمي والطعن بالرماح، وفنون الكلام المنمق حتى أنهم قالوا أنه من سيعيد للأنباط مجدهم ويتولى أمرهم.

صار النبطي يعرِّج على الجبال الشاهقة التي في تيه اليهود بسيناء، ويبيت على أعاليهم ليرى الإله عند شروق الشمس، حسبما يظن ويعود لأهله بكلام غريب، حينها تدخل النبطي في الحديث شارحا معتقده إلى مارية حول معبودته اللات التي جاء منها من غير زوج إيل الذي اشتاق إليها ولم يتمكن بفعل الجبال من الرجوع ، وكانت له أقوال تدهش مارية منها أن طيور الهداهد تحمل أرواح المحبين الذين حالت الحياة دون إلتقائهم .

تعرف مارية اكثر عن جماعة الأنباط حين يحدثها أخو زوجها الهوديّ عنهم قائلا: الأنباط هم جماعة من العرب قديمة جدا سموا بذلك لأنهم تفننوا في استخراج الماء وإنباطه من الأرض الجرداء، ومهروا في تخزين النازل منه بالسيول، كانت لهم في الماضي مملكة كبيرة وملوك كثيرون، وكانوا يسكنون البادية التي بين الشام والجزيرة، عاصمة مملكتهم وقصبة بلادهم، هي الموضع التي نسكن اليوم فيه وفيه سوف تسكنين.

وأضاف: ترك الأنباط بلادهم وهاجروا قديما فتبعثروا، وهم اليوم جماعات كبيرة بلا بأس، تسكن النواحي الشرقية من مصر، وأنحاء سيناء، وشمال الجزيرة وجنوب الشام والعراق.

استقرار وفراغ

تبدأ الحيوة الثالثة "أم البنين" بوصول مارية إلى ديار زوجها وأهله لتستقر هناك، وعنوان تلك الحيوة يرمز إلى أم زوجها وتدعى "ام البنين" التي احتضنت العروس المصرية واعتنت بها، وغيرت اسمها من مارية إلى "ماوية" وهو اسم عربي.

تقول "ماوية" واصفة حياتها هناك: "..ما سوف أراه لسنوات طوال تالية، خرافا ومعزاً تخرج من مكان قريب إلى مكان بعيد، لترعى بصحبة الصغار والكلاب القوية، المكان يبدو غريبا للوهلة الأولى، وملابس النساء متشابهة كالوجوه، لا بيوت هنا مبنية وإنما سكناهم الخيام وتجاويف الجبال، وقد نقروا في الجبل غرفا من فوقها غرف يرتقون إليها بدرج".

ويدلل دكتور زيدان في روايته على أن المراة في الأنباط كان لها شأن وذمة مالية منفصلة حين تمضي الأحداث وتطلب "أم البنين" من ابنها الهوديّ أن يتاجر بمال زوجة أخيه "ماوية" التي جنته من عرسها دون أن يخبر زوجها "أخيه" بالأمر.

كانت "ماوية" تضيق بحياتها الجديدة فزوجها "سلومة" أحول وأبخر أي كريه رائحة الفم وسكير، كما أن الفراغ يحوطها في بلاد الأنباط الذين يشبهون بيوتهم بلا عمق أو دفء برأيها .

عرفت البطلة أن رجال الأنباط دوما في ترحال يذهبون مع القوافل، في الخريف وفي الربيع يرحلون إلى مصر، ويذهبون إلى الشام والعراق في الصيف، وإلى اليمن والحبشة في الشتاء، حياتهم سفر من بعد سفر.

وحين تعود القوافل تروي أخبار كثيرة منها ما سمعته عن النبي القرشي الذي كفّ عن حرب اليهود ويريد حرب الفرس والروم، كما أن النبي فتح بكة (مكة) ، وحاصر الطائف بعد شهر فهدم كعبة اللات الكبيرة وقتلت هناك الكاهنة الكبرى وحين سمعت "أم البنين" هذه الأخبار صُدمت وماتت فقد كانت تعبد "اللات".

بين الفرس والروم

فوجئت "ماوية" ذات يوم بزيارة أخيها بنيامين لها ليخبرها برحيل والدتها، واعتزامه دخول الدير راهبا، بسبب أن "بطرس الجابي" الذي يتاجر معه ازداد جشعا، والروم لا هم لهم إلا تحصيل الأموال من المعدمين، فالناس تهرب إلى الصحارى عسى الرب أن يدركهم برحمة منه في الأديرة البعيدة والصوامع.

ويكشف دكتور زيدان على لسان "بنيامين" ما كان يفعله الروم بالمصريين حين يقول: كان الفرس يعاقبون الناس بالسجن والسياط، فصار الروم يؤدبون بلسع العقارب وعضات الحيات، يمنعون الناس من الحركة بين النواحي، ويحظرون مفارقة الكفور والبلدات ومن يخالف أوامرهم يُقتل.

يدخل "سلامة" زوج البطلة إلى الإسلام، وهكذا فعلت هي أيضا، وكان المسلمون حينذاك يتوسعون لنشر دينهم وفتح البلدان؛ فها هو الصحابي خالد بن الوليد تحرك إلى دومة الجندل بحيش كبير يريد أن يقتطع بادية الشام من يد الروم، والصحابي عمرو بن العاص يزحف على رأس جيش كبير إلى فلسطين، وأخبر عمرو كذلك أن أخيه "مالك" سيذهب إلى أطراف الشام وفلسطين فيدعو وجوه اليهود وكبار رجالهم كي يلتقوا مع أمراء الحرب المسلمين ويستعدون معا لمواجهة الروم.

وكما تبين الرواية جاء عمرو بن العاص ومعه زوجته "رائطة" التي يناديها ريطة وابنهما عبد الله إلى ديار الأنباط وقابله سلامة وزوجته مارية التي سألها بن العاص عن الكفور التي رأتها بمصر بلدها، وعدد الساكنين بهم، وهل يوجد في بيوت الناس هناك عدة حرب من سيوف ورماح ونحو ذلك؟ فأخبرته أن ذلك ممنوع عليهم فليس في بيوتهم إلا العصى.

اتفق بن العاص مع اليهود والأنباط بالنزوح إلى مصر في جماعات صغيرة كيلا يلفتوا الأنظار، فإذا جاء أوان غزو مصر تحرك اليهود مع الأنباط وبقية العرب الساكنين بمصر، ومهدوا للمسلمين دخول البلاد، وبشروهم بالخلاص مما يعانون، فمن دخل منهم في الدين صار عليه خراج أرضه، ومن بقى على نصرانيته دفع الجزية عن يد وهو صاغر.

تعرض الرواية كيف نفذ الأنباط اتفاقهم مع عمرو، وخرجوا في جماعات، وكانت "ماوية" وزوجها آخر الخارجين، وعلمت "ماوية" أن زوجها سيأخذ بيتها في مصر ويتزوج بامرأة عربية، ولكنه كان يعاملها بالحسنى فقط لأنها الوسيلة التي عرفت به أمراء الحرب، باعتبارها مصرية وعليمة بأحوال البلاد التي يقبلون على دخلوها.

كان أشد ما أحزن "ماوية" هو رفض النبطي (أخو زوجها) الرحيل، وفي أثناء سيرها مع القافلة صارحت نفسها قائلة: "..كان النبطي مبتغاي من المبتدأ وحُلمي الذي لم يكتمل إلى المنتهى، ما لي دوماً مستسلمة لما يأتيني من خارجي، فيستلبني .. هل أغافلهم وهم أصلا غافلون، فأعود إليه لأبقى معه ومعاً نموت ثم نولد من جديد هدهدين؟".

وهكذا تنتهي الرواية وتقف عند وصول عمرو بن العاص إلى مصر، في إشارة لمساعدة المصريين له لضيقهم من تردي الأحوال؛ نتيجة لصراع الكنائس في مصر حينها، وحكم المقوقس الظالم الذي عاث في الأرض فسادًا.

****

النبطي.. رواية يوسف زيدان الجديدة.. مارية القبطية بين المسلمين والروم

محمد خير

"مع انتهاء الصيف الحارق، خرج زوجي وأخوه مالك إلى يثرب في غير تجارة، قال إنه ذاهب إلى هناك ليعلن إسلامه، فقلت له أعلنه هنا، فضحك وهو يقول: أنت لا تعرفين شيئًا، ولكني أحبك لأنك طيبة".

هذه المرة، يحكي يوسف زيدان روايته الجديدة على لسان مارية، المصرية القبطية اليتيمة، يتقدم صاحب "عزازيل" في الزمن مئتي عام، فينتقل من القرن الخامس الميلادي زمن روايته السابقة الحائزة على بوكر العرب، وينتقي القرن السابع بعد الميلاد زمنا لروايته الجديدة "النبطي" (الشروق – القاهرة)، في الرواية التي صدرت طبعتها الثانية في ذات يوم صدور الطبعة الأولى "التي لم يرها أحد!"، انتقال موفق للحظة زمنية مشحونة بالدراما، فالزمن زمن الرسالة المحمدية، ومصر تعيش لحظة الرعب بين انسحاب الفرس - بعد احتلال وجيز- وعودة الروم، والأقباط ممزقون بين العدوين الطامعين، و اختلاف المذاهب المسيحية، وظلال العربي الذي أطلت طلائع جيوشه تستكشف أحوال مصر وخراجها، في مشهد يتخيله زيدان، يلتقي عمرو بن العاص بمارية التي سكنت بعد زواجها جزيرة العرب، يسألها عن بيوت أهلها، أحوالهم، أسلحتهم، زرعهم وحصادهم. قبل أن يأمرها وزوجها وأهلهم بالرجوع إلى مصر مع اليهود لتمهيد دخول العرب، يحتج البعض لكن زوج مارية يسفر عن نظرة واقعية :

" ما نحن إلا جواسيس المسلمين وعيونهم في البلاد، وإذا قالوا لنا ارحلوا، فلابد من الرحيل.

- فلماذا يبقى كبارهم في يثرب؟

-لاشأن لنا".

لكن حكاية مارية تبدأ قبل ذلك بسنوات، مع طفولة نمت في منطقة فقيرة تقع على حواف البلدة البيضاء التي يسكنها المالكانيون (الروم الأرثوذكس)، أما مارية التي تنتمي لليعاقبة (الأقباط الأرثوذكس فيما بعد)، فلم تدخل أبدا البلدة البيضاء حليفة الروم، تسمع حكايات شوارع البلدة الغنية النظيفة، وتحضر صلاة الأحد في كنيسة حيهم الفقير فيشرح كاهنهم شنوته مدى كفر أهل البلدة البيضاء، لكن الفتاة الصغيرة لا تعني كثيرا بذلك، بل لا تعرف اسم حيها الصغير "كفور النملة" إلا بعد رحيلها عن مصر، لا تعرف حقيقة البرابي (الآثار القديمة) الملتصقة بالحيّ، ولا متى نشأ النهر، كلما سألت أمها عن أصل شيء أجابتها الإجابة نفسها "من آلاف السنين"، تخطى عمر مارية الثامنة عشر سنة بلا عريس أو خاطب، وعندما يأتيها الخاطب العربي المسيحي سلامة الذي سيأخذها إلى بلاده البعيدة، تجده أمها فرصة من السماء، وتستجيب البنت خوف أن تصبح عانسا، لأن "صاحباتي اللواتي كن يمرحن حولي، تزوجن، فخلا الكفر من ضحكات العذارى، ومن الفرحات الأولى التي دامت حتى ظننتها لا تتبدد". يأتي العريس وأهله بعمائهم العربية، يدفعون "الأربون" للعروس "سيكون عقد الأملاك، والتتويج بالإكليل" بعد أسابيع، تتجهز العروس بأقمشة مصر القديمة، تحظى بالهدايا البسيطة، تبدأ الاحتفالات الدينية ورقي العروس باسم العذراء أم النور، لكن الأخبار تتطاير عن رحيل موشك للفرس وعودة الروم فيسود الهلع، الخارجون سيدمرون البلاد أثناء خروجهم والداخلون سينهبونها مجددا، يهرب أهل البلدة البيضاء حلفاء الروم بأموالهم ومتاعهم، وتبقى البلدة الفقيرة بلا نصير، يعتصم أهلها بكنيستهم ويجمع الآخرون ممتلكاتهم البسيطة ليفتدوا بها أرواحهم من الغزاة، يشتد الرعب فيهرع البعض ليختبيء في الغيطان القريبة، وفي ظلام الخوف تصرخ امرأة بأنها رأت أم النور، تجلت لها العذراء في ظلام الليل "أهل الكفر داخلهم أمل عظيم، وتضاحك بعضهم مترددا بينما تجهم الأكثرون، بعد حين، تصايحت أصوات بأن الويلات تأتينا من خطايانا، لكن ربنا رحيم بنا، ولسوف ينزل من السماء لينقذنا"، تسأل مارية جارهم أبودميانة إن كانت العذراء قد ظهرت حقا للمرأة الصارخة، يقول بأسى" هي أمرأة مسكينة".

لكن العريس المغادر يرجع في موعده، ويحكي عن اتفاق يقضي بأن يخرج الفرس من مصر بلا تدمير على أن يسلموها للروم، تستكمل مراسم الزيجة باحتفال متواضع لتوتر الأجواء وغياب الشمامسة لخطورة الطرق، تخرج مارية زوجة للعربي سلامة لتودع أمها وشقيقها الأصغر بنيامين، وتودع حياتها الأولى لترحل إلى حياتها الثانية البعيدة في جزيرة العرب، الرحلة طويلة طويلة، تستغرق شهرا ومئة صفحة من الكتاب، لكن مارية المتعبة تندهش وهي تتعرف للمرة الأولى على بلادها، الصحراء والبدو والجبال والبحر، في الوقت نفسه، تدخل طقوس الحياة العربية، تسافر في آخر القافلة على بغلة وراء ناقة زوجها، تعرف أن عليها أن تغطي وجهها أمام الغرباء، تكتشف أن زوجها لا يلتزم بالصيام المسيحي لأنه (على سفر)، تنتمي عائلة الزوج للعرب الأنباط، أصحاب الحضارة العربية الأولى التي اضمحلت مع الزمن، اسمهم الأنباط لأنهم أول من احتراف استنباط الماء من الأرض، الزوج مسيحي لكن أمه تعبد "الربتان"، وتصلي لللات وذي الشرى، وتعترض على اسم مارية (ما بال أهل مصر يسمون كل بناتهم مارية)، تسميها "ماوية"، أما الأخ الأكبر فهو "الهودي"، لأنه أراد التحول لليهودية ولم يستطع لأن أمه ليست كذلك فظل في منزلة بين المنزلتين، الأختان هما "المتلفتة" لكثرة تلفتها بحثا عن أطفالها الكثيرين، أنجبتآخرهم بعد موت زوجها بعام ونصف العام، الأخرى هي ليلى، هجرت زوجها الأول وطلقت الثاني، فيما بعد ستنشأ بينها وبين ليلى علاقة حب "ملتبس" في أيام سفر الزوج سلامة، أما الأخ الثالث، الغريب المنعزل البليغ، فهو "النبطي"، صاحب دين جديد في ذلك الزمن المشحون بالأنبياء، توقع أبوه أنه "سيكون ملكا على الأنباط يعيد مجدهم القديم"، وقالت أمه "بل سيكون نبيا ويرفع شأن العرب كلهم، لأنها أيام حملت به كانت ترى اللات كل ليلة في أحلامها"،

يتحدث النبطي بكلامه الغريب على ماوية، يحكي عن الربة الأولى اللات التي أنجبت ابنها إيل من غير زوج، حملت به في وادي فاران، وسعت وهي حبلى به بين جبال ساعير، وولدته عند قمم جبال سيناء، يرحل الابن ثم يشتاق إلى الربة فتعيقه الجبال ومن ثم أصبح اسمها العقبة، ويخلق إيل الإنسان مزيجا من ذكر وأنثى، في كأنثى ذكر وفي كل ذكر أنثى، تتعاقب الحيوات وتتبادل الأرواح الأجساد الفانية وتتناسخ. يحيك النبطي ويعتكف كل حين في الجيال ينتظر المزيد من الوحي، فيما بعد، عند اشتداد حروب الغزوات الإسلامية في الجزيرة، تدعوه قبيلة تغلب لأنها "تحتاج نبيا تحارب تحت رايته"، لا يعجبهم حديثه عن اللات وإيل، واعتذاره لهم بأن نبوته لم تكتمل، فيطردوه.

تكبر مارية دون أن تنجب فينعتوها بالمصرية العاقر، وتدخل الإسلام بطلب من زوجها لكنها لا تزال تقسم بالعذراء، تموت أم الزوج وترحل شقيقته ليلى ويمتليء المكان باليهود المطرودين من أنحاء الجزيرة، تغدو وحيدة في بيتها الخاوي بينما وجد الزوج طريقه في العمل مع الدين الجديد، يزورها شقيقها بنيامين فيبلغها بموت أمها وبنيته دخول الدير، يتغير المكان والناس ولا يبقى سوى النبطي الحائر"جاؤوا له برقاع مكتوب فيه قرآن المسلمين،فنظر إليه طويلا، وجال ببصره في السهول البعيدة، ثم قام وهو يقول، وكأنه يحادث نفسه: يأتي بهذا، ويسيل الدماء؟"

يتبدل التاريخ فتتبدل معه جغرافيا البشر، تبدأ رحلة العودة إلى مصر ومارية تائهة في غبار القافلة، تكتشف أنها لم تحب إلا شخصا واحدا، ولا شيء أصعب من اتخاذ القرار.

مرة أخرى، يحرث يوسف زيدان أرضا يعرفها جيدا، فيبعث زمنا قديما ببشره وحجره وحكاياته، وأسئلته.

****

يوسف زيدان: (النبطى) تتناول الخرافات التى أحاطت بمجىء عمرو بن العاص وتحكى وقائع احتلال الفرس لمصر

الجمعة, 05 نوفمبر 2010 21:23 حوار ـ سامح سامى - الشروق

يظل يوسف زيدان فى دائرة ضوء محيرة، فالمتتبع لأعماله، خصوصا بعد رواية «عزازيل»، وكتابه «اللاهوت العربى» ومن قبلهما رواية «ظل الأفعى»، يتلهف لما يكتبه زيدان متوقعا أن يستمتع برواية أخرى لا تقل روعة عن لغة وبناء «عزازيل» التى أثارت ضجة واسعة منذ صدورها، وحتى الآن.

ودخل زيدان على إثرها معارك وهمية، ومجانية مع الواقفين ضد حرية الإبداع بحجة الحفاظ على العقيدة المسيحية من عزازيل ــ شياطين ــ زيدان!!.

سبب الحيرة، أن «معمعة» الهجوم والرد تغفلنا عن قيمة العمل الأدبى وجمالياته ومحاولة نقده فنيا، فنستغرق فى قراءته تاريخيا وعقائديا، وكأنه بحث علمى، وليس عملا أدبيا، مما يخدم فى النهاية معدل المبيعات، فيحرم الإشارة والتدليل على جمال العمل وروعته، من عدمه.

لذلك فمتى نتوقف عن إثارة الجدل والهجوم على الأعمال الإبداعية، ونجعل الناس تقرأ وتقرر بنفسها، وعلى من يريد الرد فليرد بكتابٍ آخر، لا بالتجريح والتلميح المسىء، وجر الكتّاب فى بعض الأحيان إلى ساحات المحاكم الجنائية، وفى أحيان أكثر إلى محاكم تفتيش إرهابية.

وبقدر ما نتوقع أن تثير رواية زيدان الجديدة «النبطى» التى تصدر قريبا عن دار الشروق الجدل، كعادة كل الأعمال التى تتناول كل ما هو جديد، مقتحمة العقول الخاملة، متمردة على ما هو سائد، نتوقع التعرف على قطعة حضارية فى منطقتنا تم إغفالها ربما عن عمد، وربما عن إهمال، وهى منطقة «الأنباط» وطن رواية يوسف زيدان.

السؤال الذى كان يشغلنى: من أين أتى زيدان بوقتٍ كافٍ لكتابة عمل إبداعى جديد وسط زحمة الهجوم عليه؟. ويزداد هذا السؤال اشتعالا حينما اطلعت على بروفة رواية «النبطي»، إذ تحتاج إلى ذهن صاف لا يشغله شىء فما بالنا بـ«الخناقات» الوهمية عن وهم هدم المسيحية بسبب رواية «عزازيل»، وهى بالمناسبة كما قال عنها ناشرون غربيون إنها «جوهرة أدبية فريدة». وظنى أن رواية «النبطى» ستحظى بمثل هذه الأقوال.

إذ القارئ لـ«النبطى» يدخل فى دوامة إبداعية تجذبه إلى عمقها، فلا يستطيع أن يقاوم خفايا كلام العرب، وأسرار الأنباط أصحاب الشعر والحضارة. ولا يقدر على مقاومة حكاية ماريا العروس المصرية التى ذهبت إلى أرض الأنباط، بعدما تزوجت من النبطى، عن هذه الأرض، وعادات وتقاليد أهلها: أم البنين وسلومة وسارة، وعميرو، وعن حروب المسلمين، والروم، واليهود، والأساقفة المسيحيين. لكن الرواية أعمق من سرد هذه الحكايات أو تلك، فهى سيرة امرأة مصرية، وحياة عربية، وحضارة نبطية منسية، مغلفة بقراءة تاريخية تم توظيفها فنيا لفترة بالغة الأهمية من تاريخنا المصرى والعربى.

والرواية مقسمة إلى ثلاث حيوات، الأولى «شَهْرُ الأفْرَاح»، والثانية «صَدْمةُ الصَّحْرَاء»، والثالثة «أُمُّ البنين».

«النبطى» بطل الرواية، تقول عنه الحيوة الأولى: «وهو يأخذُ الكأسَ من يدى المرتجفة، قال بصوتٍ خفيض: شكرًا يا خالة. تمنيتُ لحظتَها بقلبِ حالمةٍ، لو كان هو الذى جاء يخطبنى.. لكنه لم يكن، كان أخا خاطبنى الأصغرَ منه، المسمَّى عندهم الكاتب؛ لأنه يكتبُ لهم عقودَ التجارات، وهو الملقَّبُ هناك بالنبطى مع أنهم كلَّهُم أنباط، وهو الذى سيعلمنى فى حيوةٍ تالية، خفايا كلام العرب وأسرارَ مَسِّ المعانى بالكلمات».

وقد صدر زيدان روايته: «مكتوبٌ فى الزُّبُـر الأُولى: إن الأُمُورَ التى تُروى مُشافهةً، لا يَحِقُّ لكَ إثباتُها بالكتابةِ»، فضلا عن تنويهٍ يقول: «نهاياتُ هذهِ الرواية، كُتبتْ قبلَ بداياتِها بقرون. وقد قدَّتِ النهاياتُ البدايات».

وفى الصفحات الأولى نقرأ تحت عنوان«الدِّيباجةُ..فى سَنَدِ الرِّواية»:

(الحمْدُ للهِ المنـزَّهِ عَنِ الصَّاحِبَةِ والوَلَد. يَبْتَلِى العِبَادَ بالشَّدائِدِ، وَهْوَ الذى يَهبُ الجَلَد. سُبْحَانه. جَعَلَ السَّلَفَ عِبْرَةً للخَلَف، وأجْرَى الوَقائِعَ بما يُناسِبُ السُّـنَنَ، وبمَا قد يَخْتَلِف. نَحْمَدُهُ حَمْدَ الحالمينَ، الرَّاضينَ بالضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ، السَّاكنينَ حِينَ البَأْس، وسَاعَةَ البُؤس. ونُسَلِّمُ كَثيراً ونُصَلِّى، عَلَى نَبِيِّهِ العَدْنَانىِّ الذى نُصِرَ بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شَهْر، ودَانَتْ لِدَعْوَتِهِ الأَرْضُ بالهدْى والقَهْر .

أمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أخبرنى شيخِى الجليلُ الحسنُ الإسكندرانى، عَنْ شَيخِه الأجَلِّ مُحمَّدٍ اللَّوَاتى، قَالَ: أخبرنا الإمامُ مسعودٌ المغربى فى مجلسِه، بسنَدِه، مَرْفُوعًا إلى الشَّيْخ طَبَارة البَلَوى. عن أبى المواهبِ البغدادىِّ المؤَدِّبِ، عَنْ شِهَابِ الدِّين

الهرَوىِّ الأفغانى المعْروفِ بالشَّيخ جَرَادَة، عَنْ نور الدِّين الوَزَّانِ السَّائِح، عَنْ عَبْدِ اللهِ المعَمِّر نَزيل القَاهِرَةِ، عَنْ شيوُخِهِ وشيخاتِه وبعض عَمَّاتِه، عَنْ الخالَةِ الغَايرَةِ مَاريَّة. وقيلَ: بَلْ صَوَابُ اسْمِها مَاويَّة).

• فسألت زيدان: بطلة الرواية المصرية التى تحكى الأحداث، تقول رواية «النبطى» فى بداياتها إن اسمها كان «ماريا» ثم صار «ماوية»... فما المقصود من هذا التغيير، وما دلالته؟

ـ هذا التغير فى الاسم يعكس تغيرا كبيرا فى ملامح الشخصية بحسب ما تجرى به أحداث الرواية، وانتقال البطلة من منطقة شرق الدلتا، حيث كانت تعيش فى قرية صغيرة، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها إلى مضارب الأنباط شمال الجزيرة العربية. وهناك تغير اسمها من الاسم المصرى النمطى المتكرر كثيرا آنذاك كاسم للمصريات إلى الاسم العربى «ماوية» الذى أطلقته عليها أم زوجها «أم البنين».

• هناك روايات كثيرة عن الأنباط، فمن هم؟

ـ الأنباط جماعات عربية كبيرة كانت تعيش من قبل الإسلام، بل من قبل المسيحية فى المنطقة الشاسعة الممتدة من جنوب العراق، مرورا بالمنطقة المسماة اليوم شمال السعودية، وجنوب الأردن، وفلسطين، وسيناء، وهم الذين بنوا الآثار الهائلة الباقية إلى اليوم منحوتة بالجبال بمنطقة «البتراء»، وما حولها من مناطق مثل «مدائن صالح»، و«وادى رم».

• لكن من أين جاء اسم الأنباط؟

ـ هذا الاسم مشتق على أرجح الأقوال من الصفة المميزة لهذه الجماعة الضخمة العريقة، فهى صفة تميزوا بها عن بقية العرب، حيث استطاعوا استنباط المياه من الصحراء القاحلة. هذا هو الرأى المشهور، ولكن الحقيقة أن الأنباط كانوا مهرة فى هندسة تجميع المياه التى تنزل بشكل نادر مع السيول، فكانوا ينقرون بطون الجبال لتخزين هذه المياه بشكل متقن، يحير المعاصرين من الدارسين وعلماء الآثار لدقته الكبيرة.

وكان رأى القدماء أنهم يستنبطون المياه من تحت الجبال، وظنوا أنها آبار يستخرجون منها المياه من باطن الأرض، فأطلقوا عليهم هذا الاسم من الفعل العربى الفصيح «نبط»، ومن المصدر «أنباط»، وهو الذى يعنى استخراج المياه.

• نعود لرواية «النبطى» حيث تتعرض لفترة حرجة من تاريخ المنطقة، هى العشرون سنة التى سبقت فتح مصر: فلماذا اخترت هذه المرحلة بالذات؟

ـ أهتم اهتماما خاصا بالمناطق المنسية والمهجورة فى تاريخنا، وأحاول من خلال أعمالى الإبداعية، وكتبى البحثية، ومقالاتى أن أوجه الأنظار إلى هذه المناطق سعيا لاستكشاف الحلقات المفقودة فى وعينا المعاصر لتأسيس وعى حقيقى بالماضى والحاضر.

وفى زمن الرواية نرى وقائع كبرى منسية اليوم مثل السنوات العشر التى احتل فيها الفرس مصر، ومثل الحضور العربى القوى فى الشام والعراق قبل ظهور الإسلام، ومثل التركينات الطويلة التى سبقت مجىء عمرو بن العاص لتسلم زمام الأمور فى مصر «وخرافات كثيرة تتعلق بذلك!». لكن الرواية تعرض لذلك كله بحسب سياق الأحداث، وعلى لسان «ماريا» التى صارت اسمها «ماوية»، بعدما تزوجت من هذا التاجر النبطى.

• إذن، النبطى هو زوج البطلة؟

ـ الإشارة إلى أخيه الذى كان من المفترض أنه سيكون نبيا، فى زمن كثرت فيه النبوات بالجزيرة العربية. لكن ظهور الإسلام أحدث تحولا جذريا فى العقلية العربية، واتجه من بعده العرب الذين أسلموا إلى آفاق جديدة لم تكن معروفة قبل الإسلام.

• وما هى الخرافات الكثيرة التى تتعلق بمجىء عمرو بن العاص إلى مصر؟

ـ خرافات تتعلق بصورة شخصيات هذه المرحلة فى أذهاننا، وحقيقة الحقائق التى جرت، فعلى سبيل المثال كان العرب موجودين بمصر قبل فتح مصر بمئات السنين، وكانت لهم تجارة كبيرة فى صعيد مصر، وشرق الدلتا. وكان هذا الحضور العربى الكثيف مرتبطا بنظام التجارة الدولية، وهو نظام تلامس فيه «طريق البخور» مع «طريق الحرير» الذى كان يمتد من مشارق آسيا إلى أطراف الشام.

• بروفة الرواية التى اطلعت عليها تشير إلى ظهور شخصيات حقيقية فى هذا النص الروائى.

ـ فى مشاهد قليلة تظهر ثلاث شخصيات، وهى شخصيات كانت لها ضرورة فنية فى سياق الأحداث، وهم تحديدا حاطب بن أبى بلتعة القرشى، وعمرو بن العاص، وزوجته رائطة «ريطة». لكن بقية شخصيات الرواية هى خيالية، ولكنها فى الوقت

ذاته مستقاة من طبيعة الحياة فى هذا الزمان الذى تلامست فيه الثقافات والعقائد المصرية والعربية، المسيحية والإسلامية الوليدة.

• هل تتوقع أن تثير «النبطى» الجدل كما تم مع «عزازيل»؟

ـ أنا لا أتوقع شيئا، أكتب ما أراه مهما ومختلفا. وبالتالى فليست عندى أية توقعات. ولكن أستطيع أن أخبرك بأشياء من واقع ما أراه فى النص، من ذلك أن اللغة فى هذه الرواية أكثر رهافة وشعرية من اللغة التى كتبت بها رواية عزازيل، بل إن بعض المقاطع بالرواية تتحول بحسب الإيقاع السردى إلى نصوص شعرية خالصة. هذا من حيث اللغة، ومن حيث البناء فرواية «النبطى» فيها من «الحكائية» والسرد الأنثوى الرهيف، الشىء الكثير، حتى إنها تعد مغامرة إبداعية أراهن فيها على قدرة المتلقى بدلا من الاعتماد على الأنماط المعتادة فى تاريخ الرواية المعاصر.

• قبل أسبوعين كرمتك الكنيسة الروم الأرثوذكسية، ومنحتك درع القديس مرقس البشير كاروز الديار المصرية (التقليد الكنسى يقول إن القديس مرقس هو الذى أدخل المسيحية إلى مصر).. ما دلالته وسط هذا الزخم من هجوم بعض الأقباط على «عزازيل»؟

ـ تلقيت هذا التكريم بتقدير كبير من البابا ثيوذوروس الثانى (بابا وبطريرك الأرثوذكس بالإسكندرية وسائر أفريقيا) وكنيسته عريقة، خصوصا أننى قبلها بأسبوع واحد كان الفاتيكان يحتفى بزيارتى لروما أثناء مشاركتى فى فاعليات مهرجان أدب الرحلات الذى عقد فى العاصمة الإيطالية فى الفترة من 30 سبتمبر إلى 3 أكتوبر الماضى. زرت خلالها جناح الآثار المصرية الذى افتتح مؤخرا بمتحف الفاتيكان فى روما، وعقدت جلسة مع أمينة قسم الآثار المصرية وآثار الشرق الأدنى القديم بالمتحف وأستاذة الآثار المعروفة «أليسيا أمينتا». ثم فى الأيام التالية لاحظت الترحيب الكبير للترجمة الإيطالية لرواية عزازيل: وهى شواهد تدل على أنه خلاف بينى وبين المسيحية كديانة!، فضلا عن استقبال الأقباط المستنيرين للرواية يدل على أن الضجة المثارة لا ترتبط بالرواية ذاتها بقدر ما ترتبط برغبة البعض فى إحداث ضجة تجعل منهم: «المدافعين» عن العقيدة المسيحية عند رعاياهم.

• وهل ترى أن كتابك «اللاهوت العربى.. أصول العنف الدينى» أخذ حقه من التداول والمناقشة؟

ـ لقد فوجئت بالانتشار الواسع لطبعات هذا الكتاب فى مصر والبلاد العربية، خصوصا بلدان الخليج العربى، حتى إن طبعاته تصدر بانتظام شهريا حتى وصلت إلى الطبعة السادسة أى تجاوز رواية «عزازيل» فى انتشار، مع أن الكتاب، وهو من الموضوعات الدقيقة، وغير المعتادة للقارئ العربى، ولكن ذلك يدل من جهة أخرى على وعى هذا القارئ الذى طالما اتهم بأنه لا يقرأ الأعمال الجيدة أو الجادة!.

وقد لامست أثر الكتاب بشكل مباشر ليس فقط من خلال آلاف النسخ التى تم بيعها أو تحميلها، ولكن أيضا من خلال التفاعل المباشر مع الشباب فى الندوات التى أقيمت الشهور الماضية ومن خلال الصالون الشهرى بساقية عبد المنعم الصاوى.

****